

الدكتور: لخضر ذيب
كلية الآداب و اللغات

جامعة الأغواط

شعرية الوطن والانتماء في الشعر الجزائري عثمان لوصيف - رحمه الله - نموذجاً .

تاريخ النشر: 2019/06/10

تاريخ القبول: 2018.....

تاريخ الإرسال: 2018/12/29

مُلَخَّصُ الْبَحْثِ

لاشك أن حب الوطن دائماً يفرض نفسه لكونه قيمة من قيم الحياة ورغم تنوع الأنماط الشعرية وتفنن الشعراء في نظمها ، يظل الشاعر الوطني حاملاً للواء الشعراء، كونه يحمل رسالة ارتبطت بالوطن ، لقد كان للوطن حضور مكثف في الشعر الجزائري القديم و الحديث وحتى المعاصر وليس هذا بالأمر الغريب ولا المستحدث ولا البدع فموضوعة الوطن أو الانتماء إلى الأرض على الدوام قوية الملامح شديدة الحضور رائعة النبض والتوهج.

الكلمات المفتاحية : الوطن، الانتماء، الهوية.

ABSTRACT:

Il ne fait aucun doute que l'amour du pays elle-même impose d'être toujours la valeur des valeurs de la vie et en dépit de la diversité des styles poétiques et poètes sophistiqués dans leurs systèmes, il reste un poète national, portant la bannière des poètes, être porteur d'un message associé à la patrie, ce fut la patrie d'une présence intense dans l'ancienne poésie algérienne, et non pas cette chose moderne et même contemporaine L'étranger, l'innovateur, les hérésies, la patrie ou l'appartenance à la terre sont toujours forts, très forts, avec la présence d'un poulx et d'une lueur merveilleuses.

key words: Pays. Algerie . Amour . poésie algérienne. la conscience]

لاشك أنّ حب الوطن دائماً يفرض نفسه لكونه قيمة من قيم الحياة ورغم تنوع الأنماط الشعرية وتفنن الشعراء في نظمها ، يظل الشاعر الوطني حاملاً للواء الشعراء، كونه يحمل رسالة ارتبطت بالوطن ، لقد كان للوطن حضور مكثف في الشعر الجزائري القديم و الحديث وحتى المعاصر وليس هذا بالأمر الغريب ولا المستحدث ولا البدع فموضوعة الوطن أو الانتماء إلى الأرض على الدوام قوية الملامح شديدة الحضور رائعة النبض والتوهج¹.

والوطن يحتل عند الشاعر الجزائري مكانة عظيمة دفعته إلى التغني به و ذكر مفاخره والتعلق به في حله وترحاله ، في سلمه وحره ، في غفوته ويقظته ، هنا تبرز الأرض الجزائرية لتترجم حالة الشاعر الجزائري العاشق ، فالوطن فكرة غافية لا يوقظها إلا الشعراء بالتحنان و الغناء ، وإن كان الإنسان يرتبط شعوريا بالمكان الذي ينبت فيه و تمتد فيه جذوره ، فإن توسيع دائرته ليشمل رقعة عريضة تتمثل في خواصه الطبيعية و البشرية ، و تعميق وعيه الفطري به يعد نموذجاً لصناعة المثال و التعلق به ، و هي صناعة شعرية في صميمها حيث بوسع الإنسان عند ممارستها أن يرى ذاته و ينشد أحلامه و يشكل انتماء للعالم الصغير.

والانتماء للوطن من خلال رؤيا الشعراء يجسده حضور إبداعي على الصعيد الثقافي والعلمي. فثمة أعمال إبداعية في التراث العربي والعصر الحديث، عبرت عن الهوية العربية باقتدار، وتجاوزت حدود الانتماء إلى آفاق إنسانية².

ولعمري إنّ مثل هذا المفهوم ليتمثله الشاعر عثمان لوصيف – رحمه الله- في جملة من أشعاره فلطالما نادى الرجل بنقل شعور الانتماء من شكله الغريزي إلى الوعي الإيجابي وتقوية الروابط التي تشد الإنسان بوطنه معتبراً أنّ الانتماء إلى الوطن لا يكتمل إلا بهذا البعث النفسي و هذه المعاني الكبيرة عندما يأخذها أي

¹ - ياسين أحمد فاعور، الثورة في شعر محمود درويش، دار الطباعة للنشر، سوسة، تونس، ط1، ص31.

- فرحان اليحيى : أزمة المواطنة في شعر الجواهري، دراسة تحليلية في ضوء المنهج التكاملي، منشورات اتحاد الكتاب العرب،² ص38..دمشق، - 2001م

شخص ويتشرها يصبح عنده نزوع طبيعي لحب الوطن ، فثمة علاقة وثيقة بين الوعي والانتماء. فالوعي يعزز الاتجاهات الفكرية الوطنية³. ومن هنا يبرز دور الأدب و السياسة والفكر في بلورة الانتماء وبنيته،

وانطلاقا من هذه الرؤية ، سنحاول أن نقف عند نماذج من شعر عثمان لوصيف يتجلى فيها بعض مظاهر الانتماء إلى الوطن - يقول الشاعر⁴:

واستوى عاشقا

يتغنى لمجد الحبيبة .. مجد الوطن وطن ..

هو أكبر من موتنا

وهزائنا

يُشكّل عشق الوطن في هذه الأسطر الشعرية عند الشاعر لوصيف بعدا وجوديا ارتبط بعشق الأنتى الذي هو أمر طبيعي لكنه سرعان ما يتوارى ليفسح المجال لعشق أعظم ، عشق أكبر من كل شيء بل هو مصدر القوة و الوحي و الإلهام ، هو أكبر من مفارقة النفس للبدن و أكبر من ضعفنا وهزائنا إنه عشق الوطن والتعلق به وهو أمر نادى به الأديان وأباحته الشرائع ، قال تعالى : " وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ " ⁵.

ويقول في مناسبة أخرى⁶:

³ - شريط أحمد شريط، تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة 1947-1985، منشورات اتحاد كتاب العرب، 1998 ص 5.

ص 75 .. - عثمان لوصيف ، المتغابي، دط ، 1999⁴

⁵ - سورة الأنفال ، الآية 30.

- عثمان لوصيف: المتغابي ، غرداية، دار هومة، الجزائر، 1997 ،ص: 69- 70.⁶

ملثُ إليه فقبلني

بالشعشعان الإلهي ثم غمس عيني

أجهش شعرا

: وأوحى إليسر المعاني الدقيقة

شغلنا الورى وملأنا الدنى

بشعر نرتله كالصلاة

تساويه من حنايا الجزائر

بهذه العاطفة التي تفوح عشقا بحب الوطن يترجم عثمان لوصيف هيامه وولعه بالوطن في أكمل معانيه
و أسى تجلياته الروحية ، وينقل إلينا تجربته في حب الوطن ، وهذا أمر يفرضه العقل كما ذكره النقل ولا
يتنافى مطلقا مع الفطرة السليمة بل يتفق مع الشرع. فقد قال الرسول صلى الله عليه و سلم - :
" اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ" ⁷

وفي قصيدة "عرس البيضاء" يحكي الشاعر عثمان لوصيف تفاصيل حب جامع جمعه مع محبوبته الجزائر
(البيضاء) العاصمة ، بلغة اختلط فيها الواقع بالخيال ، وبلغة الشاعر الفنان و شعرية أضفت
على المكان حركة وأنسا ، فاتحد المحبوبان (المرأة والمكان) ليصنعا لوحة تشكيلية تترك من حاول فهم
رموزها وقراءة طلاسمها ، فيقول ⁸:

شفق.. ولعينيك تغريبة البحر

يشتل الأرجوان المسائي

⁷ - متفق عليه رواه البخاري - واللفظ له - (320 ح 3926) و (147 ح 1889)

⁸ - عثمان لوصيف اللؤلؤة ، ص 30

يشتعل الموج بين يديك
وأنت على ساحل المتوسط تغتسلين
الغروب وأعراسه
شذرات اللهب على سوسن الماء
..والشمس تغرق
?من أهرق الزنجبيل على نمش الرمل
?من فتت البرتقال على جمر نهديك
?من غمس البحر في غسل الصبوات
?..ومن ساق نحوك هذا المتيم
كانت مفاتن جسمك تزداد عند التوهج
والنار تلتهم النار
كان اللقاء
وكان الجنون الجنون
آه, جسمك فاكهة البحر
جسمك عيد المرايا
..وجسمك مجرى المجرات
أنت الحقيقة بين يدي
وأنت البراءة تفتّر عن ليلة القدر
يا نحلة الضوء والنوء
يا زهرة الثلج عند الخليج

..ويا امرأة تنتمي فيقال الجزائر

بصراحة حقيقة الانتماء الاتحاد بل تحدد و قصيدة حب تحمل معاني عميقة ، تجسد معنى التماهي و حب الفناء ، لتترجم غزارة العواطف والتهاب المشاعر وتعلق الشاعر بفيوضات معنى الوطن ، فحب و مدن الوطن والتغني بجمالها وتعداد محاسنها يخلق نوعا من الجمال وتأثيرا في النفوس ، فهو - أي عثمان لوصيف - حين يكرر الفعل (يشتعل) مرتين وكلمة (النار) مرتين و كذلك كلمة (الجنون) مرتين و ينهال علينا في قصيدته بوابل من الاستفهامات المتتالية لا لشيء إلا ليثبت أن صورة المكان

قد " ترسبت في لا شعور الشاعر ، ولم يثرها ها هنا ولم يجمع بينها إلا شعور خفي بالخوف من المستقبل ، من الفكرة الهرمة التي دخلت ميراث الشاعر الروحي " ⁹ . لينجلي الفزع فيما بعد ويتبدد الشعور بالخوف و تتكشف الحقيقة عن صورة التماهي و الاتحاد الذي يجمع المحبوبان (الشاعر والمكان) ويستمر التفاعل وتتأجج الانفعالات وتعم المكان الشعري حيوية تؤكد عمق التجربة الشعرية " و تعيد خلق صورة مكان الألفة ويزيد من سطوعها وتعميقها حد انفصال الشاعر نفسه من مكان القصيدة الشعرية " ¹⁰ ، ويتحقق الانتماء الفعلي والإرادي والواعي للشاعر ليضفي على المكان شاعرية تتجلى فيها جميع مظاهر الجمال الإيجابية في إطار رؤية فنية ، ومن موقع كونه خلفية ضرورية لحدث كبير كما هو الحال في هذا الاستدعاء الشامل الذي تتحرك فيه الأمكنة بأشياءها البعيدة والقريبة .

لكن يفاجئنا الشاعر لوصيف حينما يعلن عن تظمره بنبرة شعرية مليئة باللوم والعتاب صابا جام غضبه على كل من سولت نفسه أن يفصل بين الشاعر وبين المكان الذي تعلق به ، أو بصورة أخرى محاولة تهيمش الشاعر وإقصائه والدفع به لأن يعيش حالة من الهوس الوجداني و الوسوسة الأدبية حينما يفرض عليه حجرا مكانيا أو يمارس عليه ضغط أدبي يرغمه على التنحي والابتعاد عن موطن ألفه و عشقه وأبدع فيه فيستسلم

⁹ - إبراهيم السمرائي : البنية اللغوية في الشعر العربي المعاصر ، ص 56.

¹⁰ - كمال نجم الدين : المكان في النص الشعري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1978 ، ص 120.

للرحيل والعيول والعيش في المدن الداخلية أو الحدودية¹¹ ، ليعيش أشبه ما يكون بالاغتراب الوجودي
يقول الشاعر:¹²

إلى. هدهدات النخيل. /. ليقبع مثل وعاد. /. والعاصفات. /اعتزل البحر جبان من. /المفر؟ أين: أين
سيد كل. الخلائق. /. كل الوري. /تملك الشمس أنت أمت؟ لا. /!! ثم لا من .. / /الأسير. أنت
والأغنيات

وتنسب عواطف الشاعر اتجاه الوطن لترسم لنا صورة المكان وقد قيد مشاعر الانتماء وأوثق حبال
الارتباط مستوحيا من تجليات شاعر الثورة (مفدي زكرياء) بعض معانيه الوطنية " لأن القيم الواحدة
تحمل لنا سر انتمائية الفرد والجماعة إلى جذور واحدة.. وأرض مشتركة، وحياة واحدة " ¹³ .

يقول الشاعر:¹⁴

ملث إليه فقبلي

بالشعشعان الإلهي ثم غمس عيني

أجمش شعرا

: المعاني الدقيقة بسر وأوحى إلي

شغلنا الوري وملأنا الدني

بشعر نرتله كالصلاة

¹¹ - محمد الشحات سرديات المنفى ، ص36

¹² - عثمان لوصيف: المتغابي ، ص:97- 98

¹³ - حسين جمعة : ظاهرة الانتماء في القصيدة الجاهلية ، مجلة التراث العربي ، يوليو 1994 ، ص35

¹⁴ - عثمان لوصيف: غرداية، دار هومة، الجزائر، 1997 ، ص:69- 70.

تساويحه من حنايا الجزائر

ويطل الشاعر متعلقاً بوطنه ، لينعكس هذا التعلق بحضور كثيف لمدين الوطن في شعره ، ومن أحب الوطن أحب كل ما اتصل به من عمران أو طبيعة أو عادات وتقاليد أو فالفصائد المدينية التي كتبها الشاعر عثمان لوصيف هي امتداد لهذا العشق الوطني المتأجج بداخله ، فهو القائل : " في الحقيقة أشعر- أن يتحلى به، ولما كنت أحب الوطن بشكل عام أحببت الوطن واجب، على كل فرد حر دائماً- أن حب مدنه التي عشت فيها بعض التجارب بشكل خاص، ومن هنا كنت أُنفحص خصائص كل مدينة، وأحاول صوغها في قالب شعري فأُنشئ بعضاً من شعر المدين، فأحدثك في الجلفة عن المراعي والشيء وأحدثك في تيزي وزو عن غابات الزيتون، وأحدثك في باتنة عن القمم الأوراسية، وأحدثك في وهران عن الشواطئ الساحلية... وهكذا" ¹⁵.

والحقيقة أن الشاعر عثمان لوصيف حين تكلم عن المدين في شعره ، فهو يكتب عن الوطن ليترجم بذلك حساً عميقاً وأصيلاً في الوجدان ، فهو يستحضر مكاناً ألفه وارتبط به ، ويمثل بالنسبة إليه حالة الارتباط البدئي المشيمي برحم الأرض - الأم ، ويرتبط بهناء الطفولة وصبابات الصبا ¹⁶.

فالشاعر يحب مدينة طولقة (الوطن الأصغر) ، فهي مسقط رأسه ، ودار مقامه و تعلقه به هو ارتباط بالبساطة " فالمكان الذي يجذب نحو الخيال لا يمكن أن يبقى مكاناً لا مبالياً وأبعاد هندسية وحسب، فهو مكان قد عاش فيه بشر ليس بشكل موضوعي فقط، بل بكل ما في الخيال من تميز، إننا ننجذب نحوه لأنه يكتنف الوجود في الحدود تتسم بالحماية، في مجال الصور لا تكون العلاقات المتبادلة بين الخارج والألفة متوازنة" ¹⁷ يقول عثمان لوصيف متغنياً بجمال طولقة: ¹⁸

- لزهة فارس، الصورة الفنية في شعر عثمان لوصيف، رسالة ماجستير، إشراف: يحيى الشيخ صالح، كلية الآداب واللغات جامعة ¹⁵ منتوري، قسنطينة، 2004م-2005م، ص397.

. - اعتدال عثمان، إضاءة النص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، ص08¹⁶

¹⁷ - غاسنون بشلار، جماليات المكان، ترجمة : غالب هلسا، ص155

¹⁸ - عثمان لوصيف: الإرهاصات، دار هومة، الجزائر، 1997، ص:95

النخيل هنا كالعرائس في عيدها الذهبي

والعراجين مثل الثريا أو كالحلى

الرمالُ التي خَضِبَتْها الدموع و

الرمالُ التي قَطَرَتْها الشُّموع

في صهدها الدموي غَاصَتْ الروح

السعف بين النَّسائم تهب

النَّدى يَنْدَرِفُ و أَصداؤه فالمدى تتجاوب

التي شَرَقَتْ بِالدُموع القُلُوب و

التي احترَقَتْ كالشُّموع القُلُوب

متيِّمة ترْتَجِفُ فَيهي البُكر هزها الهوس

إلى أن يقول :

الشَّفَقُ عبر يا واحةً تترجرج ! أه

.....

!العسقُ يحن حين أكثر أنا نُحبك غير

يرسم الشاعر في هذه الأسطر الشعرية مدينة طولقة - باعتبارها مكانا مفتوحا - كأنها امرأة تأنقت وترينت المكان ليلة زفافها ، متوخيا في ذلك البناء العاطفي ، والتجربة الحية ضمن ما يسمى بالنسق الموحد بين

والذات¹⁹. فطولقة تسحر الشاعر وتأسر لبه بأنوثتها وجمالها فلا يجد بدا من أن يجسدها امرأة فاتنة ، فيقف ذاهلا من حسن منظرها وطلعتها البهية فهي غنية بنخيلها ورمالها ، ناهيك عن ثمر لذيد من عراجينها فطولقة هي المرأة عند الشاعر عثمان لوصيف والمرأة هي المعادل الموضوعي للوطن ، روحان حلا جسدا.

ويظل قلب الشاعر متعلقا بمدن الجزائر مقيما أو مسافرا ، فيصف جمال مبانيها وما امتازت به من روعة هندستها محاولا إضفاء أجمل الصفات وأكملها على حسننها ، فيقول مثلا واصفا مدينة غرداية²⁰:

نَاعمُ أمشي على سَعفِ هَابطٍ ظلٍّ واديك

نيرانها الداميات المزامير تسكُب و

في الرمالِ تسوخُ هَابطٌ .. قَدم

أُخر تحطُّ على درجِ النَغمات و

.....

بساتين زرقاء هومتُ بين

هفهافة الظلِّ

.....

- ابن السايح الأخضر، جماليات المكان ، القسنطيني (قراءة في ذاكرة الجسد)، دراسة نقدية تحليلية، منشورات مخبر اللغة العربية¹⁹ ص98. و آدابها، دار الأديب، 2007

²⁰ - عثمان لوصيف، غرداية، ص 12

ذراعي الأصيل يبتُّ رذاذ الأشعة بين كان

في اللازورد التي تتأرجح السعفات و

يعانقني عطرها الشبقي

فأغرق في غيمة من دھول

لقد اكتسبت مدينة غرداية بجمالها وجلالها دلالة خاصة عند الشاعر عثمان لوصيف فهي تكشف جزء من حياته الشخصية فهو ابن الصحراء ، نشأ وترعرع بين نخيلها ومشى على رمالها وتذوق ثمرها فذهب يتغنى بها وبحسنها.

وعلى غرار مدينتي غرداية وطولقة والجزائر العاصمة ، فقد تضمن شعر عثمان لوصيف مدنا جزائرية أخرى (وهران – الأغواط – الجلفة ...) وغيرها من المدن الجزائرية وفي ذلك تأكيد على قوة الانتماء وحقيقة الولاء للوطن ، ويظهر ذلك جليا و واضحا في الافتخار والاعتزاز والتغني بربوعه ، فالجزائر (الوطن) هي مجموعة من المدن التي تتقاسم مصيرا واحدا و لغة واحدة ودينا واحدا وأرضا واحدة ، لكن " التجربة المعيشية هي التي توحى للشاعر بالألفاظ التي تنتظم من خلالها أن يتدخل و لأن الشاعر الشاعر شعوريا و إراديا لأن اللغة عجيبة قابلة للخلق و التشكل " ²¹.

²¹ - يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكريا، دار البعث قسنطينة، ط1، 1987 ، ص: 364

الخاتمة :

كم من شاعر قد لقب - بشاعر الوطن - في عصرنا هذا ، إلا أن أغلبهم لم يكن تناوله للوطن تناولا عميقا بل جاء سطوحيا عاطفيا ، ولعل الشاعر عثمان لوصيف - في اعتقادنا - من أكثر الشعراء الجزائريين ارتباطا بالوطن لكونه قد جسد تجربته مع الوطن بشكل أكثر عمقا متصديا لقضايا الإنسانية واعيا بانشغالاته ، متفانيا في حبه .

هوامش البحث :

- ¹ - ياسين أحمد فاعور، الثورة في شعر محمود درويش، دار الطباعة للنشر، سوسة، تونس، ط1، ص31.
- فرحان اليحيى : أزمة المواطنة في شعر الجواهري، دراسة تحليلية في ضوء المنهج التكاملي، منشورات اتحاد الكتاب العرب،¹ ص38.. دمشق، - 2001م
- شريط أحمد شريط، تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة 1947-1985، منشورات اتحاد كتاب العرب، 1998 ص 5.
- ص75 .. - عثمان لوصيف ، المتغابي، دط ، 1999¹
- ¹ - سورة الأنفال ، الآية 30.
- عثمان لوصيف: المتغابي ، غرداية، دار هومة، الجزائر، 1997، ص:69-70.
- متفق عليه رواء البخاري – واللفظ له –(320ح 3926) و (147ح 1889¹
- ¹ - عثمان لوصيف اللؤلؤة ، ص 30
- ¹ - إبراهيم السمرائي : البنية اللغوية في الشعر العربي المعاصر ، ص 56.
- كمال نجم الدين : المكان في النص الشعري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1978 ، ص 120.
- ¹ - محمد الشحات سرديات المنفى ، ص36
- ¹ - عثمان لوصيف: المتغابي ، ص:97-98
- ¹ - حسين جمعة : ظاهرة الانتماء في القصيدة الجاهلية ، مجلة التراث العربي ، يوليو 1994 ، ص35
- عثمان لوصيف: غرداية، دار هومة، الجزائر، 1997، ص:69-70.
- لزه فارسي، الصورة الفنية في شعر عثمان لوصيف، رسالة ماجستير، إشراف: يحيى الشيخ صالح، كلية الآداب واللغات جامعة منتوري، قسنطينة، 2004م-2005م، ص397.
- اعتدال عثمان، إضاءة النص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، ص80.
- ¹ - غاسنون بشلار، جماليات المكان، ترجمة : غالب هلسا، ص155
- ¹ - عثمان لوصيف: الإرهاصات، دار هومة، الجزائر، 1997، ص:95
- ابن السايح الأخضر، جماليات المكان ، القسنطيني (قراءة في ذاكرة الجسد)، دراسة نقدية تحليلية، منشورات مخبر اللغة العربية و¹ ص98. آدابها، دار الأديب، 2007

- ¹ - عثمان لوصيف، غرداية، ص 12
- ¹ - يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكريا، دار البعث قسنطينة، ط1، 1987 ، ص: 364